سؤال الانتماء في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية
مقاربة في نماذج مختارة

The Question of Belonging in the Algerian Novel written in French during the colonial period

د. موسى لعور
جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج (الجزائر)
moussa.laaouar@univ-bba.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/30 **تاريخ القبول:** 2022/09/29

ملخص:

لقد كان للاستدمار الفرنسي في الجزائر أثر على المجتمع الجزائري، وليس الأدباء عموما والروائيون خصوصا إلّا جزءا من هذا المجتمع، فقد كانوا شهودا على أوضاع مجتمعهم متفاعلين مع ما يجري حولهم، إلّا أنّهم وجدوا أنفسهم في مواجهة لغة الجانب الأقوى آنذاك – اللّغة الفرنسية– فاضطروا أن يجعلوها سبيلهم للتعبير عن واقعهم، مما نتج عنه أعمال روائية مكتوبة باللغة الفرنسية، وقد شكّلت هذه الأعمال المكتوبة باللّغة الفرنسية ظاهرة ثقافية ولغوية متميزة أثارت حولها جدلا كبيرا بين النقاد والدارسين، فمنهم من عدّها روايات جزائرية باعتبار مضامينها الفكرية والاجتماعية، وآخرون اعتبروها روايات فرنسية باعتبار اللغة المكتوبة بها، من هنا تأتي ورقتنا البحثية محاولة تحديد الأدب الذي ينتمي إليه هذا النوع من الروايات.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، الانتماء، الأدب الجزائري، الأدب الكولونيالي.

Abstract:

The French destruction in Algeria had an impact on Algerian society, and on writers and novelists in particular. They had to make French language a way to express their reality that resulted in a number of novel works written in that language, and these works written in the French language constituted a distinct cultural and linguistic phenomenon that aroused great controversy among critics

and scholars. From this angle arouse our research paper trying to determine the literature to which this type of novel belongs.

keywords: the novel, the Algerian novel written in French, belonging, Algerian literature, colonial literature

توطئة:

حين يخطّ الكاتب روايته فإنّه يعبِّر في مكان ما منها عن هُويته ومرجعيته وأفكاره العميقة التي لا يريدها أن تظهر علانيّة، فيختار لها شخصيّات تبلّغ عنه ما يريد، ولعلّ هذا الأسلوب من الكتابة يكون في الوقت الذي يجد الكاتب فيه نفسه تحت وطأة العنف أو التهديد، وليس الكاتب الجزائري بدعا من هؤلاء، خصوصا وأنّ الجزائر ذاقت ويلات المستدمر الفرنسي لأزيد من قرن، مجبرا إيّاها على ارتضاء لغته أداةً للتواصل، فنشأ جيل لسانه ناطق بالفرنسية وقلبه ينبض بروح جزائريّة، فتولّد لديه صراع داخلي بين مكوّنات هويّته وواقعه المرير، وذلك لكونهم ينتمون إلى وطن ويعبّرون عن واقعهم بلغة غريبة عن أصالتهم.

من هذا المنطلق تأتي ورقتنا البحثية الموسومة بـ: سؤال الانتماء في الرواية الجزائرية المكتوبة باللّغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية –مقاربة في نماذج مختارة–، وذلك من أجل الإجابة عن تساؤلات رئيسية وفرعية تتمثل في:

إلى أيّ ثقافة يمكن أن تُنسب هذه الأعمال الروائية المكتوبة باللّغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية؟ هل تُنسب إلى الأدب الجزائري أم تُنسب إلى الأدب الفرنسي؟ أم هي مزيج بين الأدبين (بلا هويّة)؟

من هذين التساؤلين الرئيسين نطرح تساؤلات فرعية تقودنا إلى الإجابة الصحيحة لمعرفة الانتماء الفعلي للأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية؛ هذه التساؤلات الفرعية تكمن في:

– ما المقصود بالأدب الجزائري؟

– مَن هو الكاتب الجزائري الذي يكتب باللغة الفرنسية؟

– كيف نشأ الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية؟

– هل تعبير هذه الأعمال الروائية المكتوبة باللغة الفرنسية عن الواقع المرير للشعب الجزائري معيارٌ من معايير التصنيف (أدب جزائري)؟

– هل يحتاج الانتماء للوطن إلى لغة بعينها؟

وبغية الإجابة عن هذه التساؤلات ارتأينا استقراء بعض النماذج (الأعمال الروائية) ممثَّلة في:

- ثلاثية محمد ديب: الدار الكبيرة – الحريق – النول.
- مولود معمري: الأفيون والعصا – الهضبة المنسية – السبات العادل.
- مولود فرعون: ابن الفقير – الأرض والدم – الدروب الشّاقة.

1- تعريف الكاتب الجزائري: قدّمت تعريفات عديدة للكاتب الجزائري ننتخب منها:

- تعريف جون سيناك (jean senc): "الكاتب الجزائري هو كل كاتب اختار أن ينتمي إلى الأمّة الجزائرية"[(1)].
- تعريف مولود فرعون: "الكاتب الجزائري هو الذي وُلد في هذه الأرض سواء تعلق الأمر بذوي الأصول الأوروبية أو السكان الأصليين[(2)].

يتضح ممّا سبق: أنّ تحديد هُوية الكاتب الجزائري غير مُتفق عليها، فحسب مولود فرعون: أنّ كلّ من وُلد على هذه الأرض فهو أديب جزائري، أمّا جون سيناك فمعياره: الاختيار؛ سواء وُلد بالجزائر أم خارجها، وهو ما نراه أكثر واقعية ومنطقية إذ لا يُعقَل أن ننفي الانتماء إلى الجزائر عن الجزائريين الذين وُلدوا خارج الجزائر، وبذلك فإنّنا نقول إنّ الكاتب أو الأديب الجزائري هو: كلّ شخص يحمل الروح الجزائرية سواء وُلد بالجزائر أم وُلد بخارجها، وسواء أكان عربيا أم بربريا أم إفريقيا أم لاتينيا (أوروبيا)، فالأصل في الانتماء هو: كلّ مَن نطق على لسان حال الجزائريين، فمن الجزائريين مَولدا مَن هم فرنسيّو الانتماء من أمثال ألبير كامي (المولود بالذرعان ولاية الطارف) وجاك دريدا (المولود بالأبيار بالجزائر العاصمة)؛ فألبير كامي (مؤسس مدرسة الجزائر L'école d'alger) عبّر عن البطل الفرنسي الذي يعيش قلقا وجوديا ولم يعبّر عن الإنسان الجزائري. يقول مصطفى لشرف: "إنّ هذا الأدب رغم نقائصه تمكّن من نقل الواقع الجزائري لأوّل مرّة في حين عجز آخرون أمثال

ألبير كامي في امتلاك الشجاعة لذلك". بل إنّه "وقف موقفا مضادا من كفاح الشعب الجزائري، وقد عبّر عن ذلك في ندوة صحفية له عقدها بستوكهولم عام 1957، بمناسبة تسلمه لجائزة نوبل للآداب، مجيبا على سؤال شاب جزائري طلب منه أن يوضح موقفه من حرب الجزائر بقوله: إنّني أومن بالعدالة، ولكنّني أدافع عن أمّي قبل دفاعي عن العدالة"[3].

2- تعريف الأدب الجزائري: قدّمت تعريفات عديدة للأدب الجزائري ننتخب منها:

- تعريف عايدة أديب بامية بأنّه: "كلّ عمل أدبي مؤلّف سواء باللّغة العربية أو باللّغة الفرنسية من قبل أيّ من سكان الجزائر الأصليين"[4]. ومنه فعايدة ترى أنّ الأدب المكتوب باللّغة الفرنسية من قبل سكان الجزائر الأصليين هو من الأدب الجزائري.
- كما يرى مصطفى حفيظ أنّ الأعمال التي أنجزها كتّاب جزائريون يكتبون باللّغة الفرنسية (الشعر، الرواية، القصة القصيرة، المسرح) هي من قبيل الأدب الجزائري[5].

ومهما يكن فإنّنا نرى أنّ: كلّ تأليف كُتب أو يُكتَب بقلم جزائري يُعدُّ من قبيل الأدب الجزائري سواء كُتب باللغة العربية أم باللغة الفرنسية أم بلغة أخرى شرط أن يحمل مضمونُه الروحَ الجزائرية.

3- نشأة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسيّة وتطوّره:

يرجع المؤرخ جان ديجو أوّل نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891 وهو عبارة عن قصّة بعنوان: "انتقام الشيخ" كتبها الوهراني محمد بن رحال، ونشرتها المجلة الجزائرية التونسية[6].

وثاني نصّ هو عبارة عن مجموعة شعرية (حكايات وقصائد من الإسلام) لسالم القبي منشورة عام 1917 أتبعها بمجموعة شعرية أخرى سنة 1920 بعنوان (أنداء مشرقية) وهما عملان يمجدان الإسلام والشرق وفرنسا في آن واحد[7].

ويعتبر جان ديجو سنة 1920 انطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ (الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية) ويعُدُّ مؤَلَّف القايد بن الشريف الموسوم بأحمد بن مصطفى القومي بداية تلك الانطلاقة وينظر إليه على أنّه أوّل رواية يكتبها جزائري باللّغة الفرنسية[8].

ثمّ إنّه كان انسداد بين الشعب الجزائري والمستدمر مدة طويلة إلى أن ألغت فرنسا قانون الأنديجينا في 4 فبراير 1919 فأصبح بإمكان الجزائريين إنشاء الأحزاب وإصدار الصحف[9]

ومن باب إظهار شيء للرأي العام الفرنسي والدولي استغلت فرنسا مناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر بإظهار شيء يظهر ثمار "الرسالة الحضارية"؛ التي طالما ادعى العدو أنّه جاء لنشرها في الجزائر، فكان لا بد من تشجيع الأدب ونشر أعمال إبداعية لكتّاب من "الأهالي" تظهر كيف أن جمعة أو Friday قد حفظ الدرس وتعلم لغة سيده (...) وهكذا ظهرت فجأة وبعد أكثر من تسعين عاما من الاحتلال أعمال أدبية باللغة الفرنسية لجزائريين؛ كتبت على عجل للمناسبة، ونشرت على عجل أيضا (...) وعلى هذا النحو ظهرت في عشرية 1920 و 1930 خمسة أعمال أدبية: مجموعة سالم القبي الشعرية والسيرة الذاتية للقايد بن الشريف. ورواية زهراء امرأة المنجمي لعبد القادر حاج حمو (سنة 1925)، ورواية "مأمون بدايات مثل أعلى" لشكري خوجة (1928) ورواية العلج أسير بربروسيا لشكري خوجة (1929)[10].

إن هذا العدد القليل من الأعمال الأدبية يعكس مدى عقم المدرسة الاستعمارية وضآلة النتائج التي أعطتها سياسة الاستعمار التعليمية بخصوص الأهالي[11].

وقد عالجت الأعمال الآنفة موضوع معاقرة الخمرة وتعاطي الحشيش ولعب القمار وكل هذا لم يأت عفويا ولم يكن مسألة شخصية أو موضة أدبية لدى هؤلاء ولكنّه كان هاجسا اجتماعيا تحركه انشغالات وتساؤلات فكرية وسياسية عن الحدود الفاصلة بين المحرّم والمباح في الدين وفي القانون المدني بين حرية الفرد بالمفهوم الغربي والوازع الديني والأخلاقي بالمفهوم الإسلامي، ومن هنا نلاحظ أنّ أزمة الهوية قد رافقت الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية منذ بدايته الأولى[12].

كما ظل السؤال المطروح هو: كيف يمكن للجزائري أن يكون فرنسيا مع ما في ذلك من تناقض لأنّه فرنسي بحكم واقع الاحتلال ومع ما يترتب على ذلك –من تبعات والتزامات– في حالة حصوله على صفة مواطن فرنسي فعلا من تبعات والتزامات. وكيف

يبقى في الوقت ذاته عربيا مسلما؟ لقد كان هذا السؤال محورا أساسيا في معظم الروايات التي ظهرت في الفترة ما بين (1929–1948)؛ ويتعلق الأمر برواية "مريم بين النخيل" (1934) لمحمد ولد الشيخ، و"بولنوار فتى جزائري" (1941) لرابح زناتي، و"ليلى فتاة جزائرية" (1948) لجميلة دباش[13].

وقد عرفت سنة 1948 خروجا عن التقليد الذي سارت عليه الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية في الجزائر، بصدور روايتي "إدريس" لعلي الحمّامي، و"لبيك" لمالك بن نبي، وكلا الكاتبين كانا بعيدين عن الفكر الاندماجي[14] فالرواية الأولى كانت سبّاقة في طرح موضوع الكفاح المسلح كسبيل وحيد للتحرر، بينما الثانية تدعو إلى التوبة والتمسك بالعقيدة في سبيل التحرر[15].

كما شكّل ظهور رواية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب سنة 1952 منعطفا حاسما في تطور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية على مستوى المضمون؛ وذلك من حيث نزولها بالتحدث عن هموم الناس البسطاء ووصف معاناتهم من الجوع والفقر والقهر[16].

كما ظهرت في الفترة ذاتها أعمال روائية أخرى لكتّاب آخرين تسير في الاتجاه نفسه الذي سارت فيه أعمال محمد ديب، منها رواية "نوم العدل" (1955) لمولود فرعون و"نجمة" (1956) لكاتب ياسين[17] لتتحوّل الروايات مع الوقت إلى نزعة نضالية ثورية في أعمال كاتب ياسين اللاحقة، ومالك حدّاد وآسيا جبّار، في توافق مع الأحداث السياسية التي تطورت بداية من سنة 1954 إلى كفاح مسلح دام سبع سنوات ونصف[18] وهو ما عبّرت عنه الأعمال الروائية اللاحقة بدءا من سنة 1958 مثل رواية" الانطباع الأخير" لمالك حدّاد (1958)، و"صيف إفريقي" لمحمد ديب(1959)[19].

وتنتمي معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال وحتّى نهاية سنوات الستينات تقريبا إلى الاتجاه الملتزم والمنحاز إلى الثورة، مثل رواية "أطفال العالم الجديد" (1962) لآسيا جبّار[20].

ومدار الأمر أنّ:

- كتّابا كثيرين قاتلوا بأقلامهم مستحقين بذلك جدير التقدير والثناء، فالبرغم من ارتضائهم اللسان الفرنسي إلّا أنّهم عبّروا عن الروح الجزائرية وعن القومية العربية البربرية الإفريقية، وخير دليل على ذلك الإطراء الذي وجهه الحاكم العام شارل جونارت (Charles Jonnart) (1857–1927م) لشعر محمد بن شريف "Aux Villes Saintes de l'Islam"، إذ تعدّ شهادة على ارتباط المؤلف بقيم أسلافه على الرغم من تمزق الهوية وضياعها: "أنت لقد جلبت في ملاحظاتك وأوصافك في هذا الشعر الذي يتكوّن من سحر وغموض عرق لم تغيّره القرون، لم يتغيّر مثل ضخامة الصحراء العربية التي داسها العديد من الأجيال في طريقهم إلى المدينة المقدسة (مكة) حيث ومنذ وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلَّم) يأتون للطواف والركوع كل عام باسم الإسلام في الحج (...) وهكذا بررتم ثبات تقاليدكم الإسلامية وقوتها إنّها تقاليد عظيمة ونبيلة، ستساهم في ربطكم بفرنسا الكريمة والمخلصة!».
- العمل الأدبي تميّز – خاصة في فترة الحرب العالمية الثانية ومجازر الثامن من ماي 1945– بتنامي الوعي لدى الجزائريين، لا سيما في الوسط الفكري في أعقاب هذه الحرب، وبالتحديد في الخمسينيات من القرن الماضي حيث تمّ تطوير لغة أدبية أصيلة[21] كما تميّز العمل الأدبي بمختلف أجناسه في الحقبة الاستدمارية الفرنسية بظاهرة فرضتها مقتضيات خاصة مرت بها البلاد، وهي ضرورة تقديم حقّ الجماعة على حقّ الفرد؛ ممّا دعا الأدباء عامة والروائيين خاصة إلى اعتماد شكل من أشكال الكتابة يتناغم مع الواقع الاجتماعي، فتجاوزوا وصف ما يعانيه المضطهدون إلى الإبلاغ عن التطلعات الشعبية؛ التي يأتي على رأسها الاعتراف بهوية جماعية مختلفة عن هوية المستدمر.

هذه المفارقة بين الهُويتين المتضاربتين ذكّت فكرة القومية وذلك من حيث كونُها عقيدة وانتماء إلى وطن أو إقليم، كما أنّ غيّ المستدمر ووحشيته زادت من حدّة الشعور القومي فطغى على أيّ مشروع فردي ، وصار همّ المثقفين والأدباء التعبير عن ألم الجماعة بدل التنفيس عن آهاتهم وأوجاعهم الشخصية، هذه السياقات أسهمت في ظهور كتابة إثنوغرافية عبّرت عنها روايات كتبت بأقلام جزائريين ولكن بلغة المستدمر. ومن الأسماء التي

ذاع صيتها في هذا النوع من الكتابة: (محمد ديب، مولود فرعون، مولود معمري) وهي أسماء قدّرت الحياة المجتمعية، وعبّرت عنها بضمير الفرد الناطق باسم الجماعة، من خلال شخصيات أقلّ ما يقال عنها أنّها رموز تحكي الواقع المعيش في ذلك الزمان والصراع الإيديولوجي والهُوياتي الذي عانى منه الشعب الجزائري في تلك الحقبة، وبناء على هذا صنّف مصطفى لشرف المؤلفات التي تعبّر عن الأنا ولا تحمل ثقل المجتمع بأنّها كتابات قشرية (سطحية)، وبهذا فقد عدّ مصطفى لشرف الأعمال التي جمعت بين المشروع المجتمعي والمشروع الأدبي هي الأعمال الإبداعية الحقيقة[22].

4- آراء النقاد في الأعمال الروائية المكتوبة باللّغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية:

تجد مسألة الهوية صدى واضحا في الكتابات الأدبية المكتوبة باللّغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية، والهويّة في مفهومها العام مشتقّة من الضمير "هو" ويقصد بها حقيقة الشيء أو الشخص، المطلقة والمشتملة على صفاته الجوهريّة[23] ولهذا فإنّ الهويّة هي الصفات الثابتة والحقيقية للشخص التي لا يمكن تغييرها، ولها ملامح ومميّزات تجمع أشخاصا وتفرّق آخرين، ولعلّ أزمة الهويّة في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسيّة مردّها إلى اختلاف ملمح من الملامح؛ الذي يجعل هذا الأدب محسوبا على الأدب الفرنسي (اللّغة المكتوب بها كل منهما) ولكنّه يخالفه في ملامح أخرى عديدة تجعله ينتمي إلى الأدب الجزائري (المضمون من ثقافة ودين وغيرها تختلف عن الأدب الفرنسي)، وبذلك فإنّ قراءة ما يسمى بروايات "الأطروحة"[24] يوفر معلومات عن تمزيق الهوية وانقسامها إذ تحكي أغلب هذه الروايات قصصا رومانسية وواقعيّة يتحوّل فيها مسار الشخصيات عادة إلى "بحث عن الهويّة". وهكذا لأنّ الجزائري في تلك الفترة "يجمع في نفسه بين الهويّة الإفريقية والبربريّة والعربيّة الإسلاميّة، مشبّعا بالتعليم الغربي المفروض عليه.

ومهما يكن من أمر فقد تباينت آراء النقاد في هُويّة هذه الأعمال الروائية المكتوبة باللّغة الفرنسية، وهذا ما نرصده وفق اتجاهات ثلاث:

4-1/ الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية تنتمي إلى الأدب الفرنسي:

يرى بهذا الرأي نقاد كثيرون أبرزهم: الدكتور عبد الملك مرتاض حيث يقول:" إنّ رأيّي في هذا الأدب سيّء جدّا، وقد أكون مخطئا في ما أرى، وقد أكون قاسيا في ما أحكم ولكنّني لا أريد أن أكون منافقا في آرائي فأجهر بغير ما أُخفي، ولو أردت أن أقول ما أعتقد لقررت بأنّ هذا الأدب غريب في نفسه، ومنفيّ من موطنه؛ الذي كُتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة"[25].

ثمّ إنّ هؤلاء يكتبون للمتلقي الفرنسي وليس الجزائريّ (الأميّ غير المتقن للغة الفرنسيّة) وذلك من أجل نيل إعجاب الفرنسيين. يقول عبد الملك مرتاض: "وقد ظل هؤلاء الكتّاب في معظمهم معجبين كلّ الإعجاب بالحضارة الفرنسية، بوجه خاص، والحضارة الغربية بوجه عام جاهلين بالتاريخ العربي غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية، إذ أنَّ لهم أن يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الإلمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي و كنوز حضارته الغنية بمعطياتها الإنسانية إطلاعا حقيقيا خاليا من الشوائب والشرور"[26].

4-2/ الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية لا تنتمي إلى الأدب الجزائري ولا تنتمي إلى الأدب الفرنسي (أدبٌ بلا هُويّة):

يرى بهذا الرأي الدكتور أحمد منور حيث يقول:" ونميل من جهتنا كثيرا إلى الموقف الوسطي الذي لا يتجاهل التاريخ وملابساته، ولكنّه في الوقت نفسه لا يسقط من حسابه الحقائق الأخرى، فالشيء الذي لا يمكن الاختلاف فيه أنّ هذا الأدب قد وُلد على الأرض الجزائرية، بأقلام جزائرية، في ظروف استعمارية قاسية وغير طبيعية، في الوقت الذي كان فيه المحتلون يستعدون للاحتفال بمرور قرن من الزمن على استيلائهم على الجزائر، وقد شاء له المحتلون أن يكون شاهدا ودليلا على ثمار الرسالة الثقافية والحضارية التي ادّعوا أنّهم جاؤوا لنشرها في الجزائر، وحققوا غرضهم الدعائي في أوّل الأمر، لكن سرعان ما انقلب السحر على الساحر، وتحوّل هذا الأدب في مرحلة لاحقة – قبيل الثورة التحريرية المسلحة وأثناءها– إلى وسيلة نضالية للكفاح ضد المستعمر، وللتعريف بالقضية الجزائرية في العالم

وكل هذه الحيثيات تجعل من هذا الأدب أدبا جزائريا، سواء من حيث الولادة أو المحتوى أو النسب، ولكن هذا لا ينسينا من جهة ثانية بأنّه كُتب بلغة المستعمر، وأنّه لم يكن كله أدبا نضاليا، ولا كلّه مشرّفا لأصحابه، كما أنّه كُتب لقارئ غير القارئ الجزائري (...) فنقول إنّه لا يمكن بأيّة حال من الأحوال الفصل بين هذا الأدب وبين الظروف التاريخية التي صنعته، ومن هنا فهو بإيجابياته وسلبياته على السواء أدب جزائري (...) ولكنّه لا يمكن لنا بأيّة حال من الأحوال أن نعدّه أدبا قوميا، بحكم اللغة التي كُتب بها، حيث إنّ الأدب القومي لا يكون بغير اللغة القومية، واستنادا إلى نصّ الدستور الجزائري فإنّه لا توجد هناك لغة وطنية رسمية للجزائر سوى اللغة العربية"[27].

ومدار الأمر أنّ:

أ- هؤلاء الكتّاب لم يتمكنوا من إرضاء جمهورهم الفرنسي ولا الجزائري ممّا أشعرهم بأنّهم يقفون على الهامش بلا هُويّة؛ لأنّ هذه الأعمال أخذت سوى الشكل من الفرنسية (اللّغة الفرنسية)، فكيف للكاتب أن ينقل مشاعره وأفكاره للمتلقي الفرنسي المختلف عنه ثقافة؟ وأخذت المضمون من الثقافة الجزائرية، لكنّ الجزائري لا يتقن اللّغة الفرنسية بسبب الجهل.

ب- الأعمال الإبداعية المكتوبة باللغة الفرنسية هي إضافة للأدبين الجزائري والفرنسي على السواء.

ت- هُويّته عربية بربرية إفريقية بروح كتّابها ومشاعرهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى هُويّة فرنسيّة بحكم اللّغة التي كُتب بها".

4-3/ الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية تنتمي إلى الأدب الجزائري:

يرى بهذا الرأي نقاد كُثُر أبرزهم: الدكتور عبد الله الركيبي، حيث يقول: "إنّ تأخر الثقافة العربية في الجزائر، أوجد تخلفا في اللغة العربية، مما أوجد فجوة كبيرة في الحصول على أسلوب لغوي روائي مرن -في الأدب الجزائري بعامة، والقصصي بخاصة- فكان من البديهي أن يلجأ الكتاب الجزائريون إلى استخدام الأداة الأجنبية لملء الفراغ، فساهموا بطريقة غير مباشرة في تطور الفن الروائي نسبيا"[28].

ومهما يكن فإنّ اللّغة (الفرنسية) ليست معيارا لتحديد هُويّة وانتماء هذه الأعمال الروائية، بل مضامينها هي المعيّار، وبما أنّ مضامينها جزائرية رافضة للاستدمار الفرنسي فهي تنتمي للأدب الجزائري، وللتدليل على هذا ارتأينا مقاربة بعض الأعمال الروائية **الجزائرية** المكتوبة باللغة الفرنسية.

5-(أعمال روائية جزائرية مكتوبة باللّغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية) مقاربة في نماذج مختارة:

أدّت الحرب العالمية الثانية ومجازر الثامن من ماي 1945 وكذا التغيّرات الحاصلة في العالم إلى تنامي الوعي لدى الجزائريين لا سيما في الوسط الفكري في أعقاب هذه الحرب، وبالتحديد في الخمسينيات من القرن الماضي تمّ تطوير لغة أدبية أصيلة[29] -كما أسلفنا الذكر في ظروف نشأة الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية- فكتب كاتب ياسين قصيدته "في فم الذئب" dans le gueule du loup وهي نص فريد ومستقل، سعى من خلاله إلى إحباط هيمنة الأدب الفرنسي والإقصاء الممارس على أدباء المستعمرات، كما شهدت هذه المرحلة تغيرات كبيرة تفسرها الثلاثية الأولى لمحمد ديب: الدار الكبيرة (1952) الحريق (1954)، النول (1957)، وهي ثلاثية تصف الجزائر المستدمرة، وبداية مرحلة الوعي التدريجي عند الجزائري[30].

لقد كانت ثلاثية محمد ديب بمثابة كشف اللثام عن الواقع المرير الذي يكابده الجزائريون قبيل اندلاع الثورة التحريرية، وقد استطاع ديب من خلالها تصوير الحقائق، عن طريق تنويع الشخصيات الرئيسة في أعمالها فتحدّث عن الطفل والمرأة والأم والوطن وربط بينها بطريقة فنيّة وجمالية تندر مع غيره من الكتاب، فكانت عملا فنيّا بامتياز وواقعيّا ثوريّا في الآن نفسه، ومن ثمّ أصبح الأدب منبرا يدافع الكتاب من خلاله عن معتقداتهم وهويّتهم وإن كان ذلك بلسان العدو.

بناء على هذا صرّح محمد ديب في مقابلة مع برنامج "العمل الجزائري 1954" حين سئل عن شخصية "عمر" الطفل ذو العشر سنين في رواية الدار الكبيرة؛ المستوحاة من مسقط رأسه "تلمسان" وعلاقته بها قائلا: "لم تكن طفولتي طفولة عمر، لكن كل ما يقال عن عمر وبيئته مأخوذ مباشرة من الواقع"[31].

لقد لقي هذا العمل قبولا كبيرا عند الجزائريين وتعرض لانتقادات شديدة من قبل الصحافة الاستدمارية وهو دليل على تطور الضمير والتوعية شيئا فشيئا وبداية انكشاف فرية فرنسا الكبرى.

إنّ ثلاثية محمد ديب عبارة عن لوحة فنيّة تصوّر حياة الجزائريين أثناء الاستدمار مع سياق تاريخي واجتماعي واضح؛ المتمثل في الفقر واليأس من المجتمع الذي يستهلك نفسه للبقاء على قيد الحياة، وقد صوّرها في أماكن عديدة، منها (المدرسة) مبيّنا أنها أصبحت مكانًا غير معتاد بالنسبة لـ: (عمر) الطفل الجزائري الفقير، فعلاقاته مع زملائه في الفصل لم تكن حميمة، بل كانت قائمة على السلطة والقوة: "لقد جعلته سنواته العشر من بين زملاء الفئة العليا، كما أنّه يدرك أنّ التعليم الذي يتلقاه في المدرسة به شيء خاطئ أو غير مناسب، فيظهر مصدوما ومذعورا من هذا النظام التعليمي القائم منذ المراحل الأولى على الأكاذيب والخداع، فيفقد الثقة في المدرسين؛ الذين يناقض بعضهم البعض، ويخنقون الحقيقة التي تتجلّى كل يوم أمام عينيه فيستنتج أنّهم شركاء العدو.

يقول محمد ديب في رواية الدار الكبيرة: "(...) رفع إبراهيم بالي أصبعه (...) قال إبراهيم: فرنسا هي أمنا الوطن (...) كانت شفتا عمر مزمومتين (...) فرنسا، عاصمتها باريس، إنّه يعرف هذا، الفرنسيّون الذين يراهم في المدينة، قادمون من تلك البلاد، (...) فرنسا ليست أمه، سواء أكانت هي الوطن أم لم تكن هي الوطن، إنّه يتعلّم الأكاذيب (...) هذه هي الدراسة (...) كان التلاميذ يقولون: أحسن تلاميذ الفصل من يعرف كيف يكذب خيرا من غيره، من يعرف كيف يرتّب كذبه (...) بدأ الأستاذ حسن الدرس: الوطن هو أرض الآباء، هو البلد الذي نسكنه منذ أجيال (...) ليس الوطن هو الأرض التي نعيش فوقها فحسب، بل هو كذلك كل ما على هذه الأرض من سكان، وكل ما فيها بوجه الإجمال (...) وحين يأتي من خارج الوطن أناس أجانب يدّعون أنّهم هم السادة فإنّ الوطن يكون عندئذ في خطر، هؤلاء الأجانب أعداء يجب على الأهالي أن يدافعوا عن الوطن، وأن يقدّموا حياتهم ثمن ذلك ..."[32].

من المقتطف السابق تظهر الروح الثوريّة لمحمد ديب بوضوح والتي بثّها في كلام الأستاذ (حسن)، وكذا الأسئلة المتعدّدة التي يطرحها (عمر)، في كل مرّة يكتشف حجم التناقضات التي يعيشها وهو ما يزال في سن العاشرة.

كما نجد من الكتاب الجزائريين الذين كتبوا بلغة المستدمر ونال شهرة كبيرة؛ الروائي والأديب مولود معمري فأعماله تعبّر عن مآسي الشعب الجزائري وأحزانه وبأسه، ومن أشهر رواياته: (الهضبة المنسية) (La colline oubliée) والرواية الثانية (السبات العادل) (Le sommeil du juste) والرواية الثالثة (الأفيون والعصا) (L'opium et le bâton)[33].

لقد كانت كتابة مولود معمري مواجهة حقيقية للمستدمر وثورة على قوانينه. يقول: "إنّني على ثقة أكيدة بأنّ المناضل هو الذي يطلق النار على الآخرين، وفي الإمكان أن نطلق العيارات النارية بواسطة القلم، هذا حال الكاتب"[34].

إنّ رواية الهضبة المنسية التي نشرت 1952م تصوّر الوضع في الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي، ليعبّر الكاتب فيها عن مآسي الشعب (...) إنها فترة اليأس والقنوط بدون إمكانية للوصول إلى حل، لأنّ الاستعمار لا يقدّم حلولا[35].

أمّا رواية (الأفيون والعصا) التي نشرت 1955 تميّزت بمسايرتها للوقائع السياسية بالإضافة إلى تصوير المجتمع القبائلي بكل خصائصه، كما تناولت الثورة التحريرية التي انخرط فيها؛ فقد صوّر بعمق تلك المعاناة النفسية التي عاشها الفرد الجزائري العادي[36].

لقد كان لكتابات مولود معمري أثر كبير في نفوس الجزائريين خاصة بعد تحويل روايته "الأفيون والعصا" إلى عمل سينمائي جسّد مرحلة صعبة جدّا من نضال الشعب الجزائري وصوّر معاناته وصبره على مقاومة العدوّ، بطريقة بطوليّة جسدتها الشخصيّة الرئيسيّة "الدكتور البشير" وأخوه المجاهد اللذان اختارا الصعود إلى الجبل والانضمام إلى المقاومة.

أمّا إذا تصفحنا روايات مولود فرعون – من خلال روايته (ابن الفقير) (Le fils du pauvre) الصادرة سنة 1953– نجد نموذجا آخر من الروايات، فقد اختار أن يسرد لنا الواقع الاجتماعي للشعب الجزائري وخاصة المجتمع القبائلي، حيث بيّن في هذه الرواية كيف

يكون الطبع الحقيقي للرجل القبائلي، أين يولد الطفل في هذه المنطقة من أجل المعركة في سبيل الحياة، أمّا الجانب الآخر الذي تصوّره الرواية فهو الجانب الذي يصف الظروف التي مهدت لثورة التحرير.

كما أنّ روايته (الأرض والدم) (La Terre et le sang) الصادرة سنة 1957، تقع أحداثها ما بين الحربين العالميتين وتنتهي في عام 1930 يعاني فيها البطل (عامر) معاناة شديدة بسبب هجرته إلى فرنسا، طلبا للعمل، ليعود إلى قريته مع زوجته الفرنسية، ولكنه لا يتمكن من التأقلم مع واقعه الجديد في قريته الصغيرة، فلا هو تمكن من التأقلم في الغربة ولا تمكن من الحياة في قريته من جديد إلّا بصعوبة[37].

كما عبّرت روايته "الدروب الشاقة" عن ألم الاغتراب والتمزّق بين شخصيّتين مثلها البطل (اعمر) الذي عانى من التشويش، والفوضى والاضطراب، الشيء الذي أثّر على نفسيّته فأصبح عاجزا عن التعبير ليصبح شخصا يهذي كالمجنون، دون أن يدري ما يقول فلم تمنع عنه ثقافته ولا انتماؤه من ناحية أمه الفرنسيّة إلى فرنسا من التمييز، ولا استطاع أن يندمج مع أبناء قريته بعد عودته من فرنسا، فصار اغترابه نفسيّا أكثر منه ماديّا فلا ارتاح في فرنسا أرض أمه ولا ارتاح في قريته مكان نشأته وأرض أجداده، وبهذا جسدت هذه الشخصيّة الانفصال عن الذات والواقع، وشعور الإنسان باختلافه عن الآخرين وضياعه وسط الزحام، وفقده الإحساس بالعلاقة بعالمه الواقعي[38].

ومهما يكن من أمر؛ فإنّ:

- روايات مولود فرعون عبّرت عن فئة تنتمي إلى الشعب الجزائري والتي تعيش صراعا شديدا، فأغلب شخصياته مزدوجة الجنسيّة وضائعة بين هويّتين، تحاول من جهة الاندماج مع الهويّة الفرنسيّة الجديدة دون أن تنسلخ من هويّتها الأصليّة، إلّا أنّ هذه الشخصيات تقع دائما في مشكلة الانفصام، فلا هي استطاعت الاندماج وصارت من ضمن المواطنين الفرنسيين ولا هي تقبلت المعاناة التي تعيشها الشخصيّة الجزائريّة المظلومة والمقهورة بسبب الاستدمار والفقر والعوز.

- مولود فرعون بهذه الفلسفة أصبح نموذجا لجيله، جمع في ذاته عالمين وثقافتين وصوّر المشكلات والمتناقضات التي زخرت بها مرحلة يقظة الوعي الوطني للجزائريين في تلك المرحلة المرتبطة بالكفاح من أجل الاستقلال[39].

- محمد ديب ومولود معمري ومولود فرعون لم يكونوا الوحيدين الذِين عبّروا عن معاناة الشعب الجزائري بلغة المستدمر، بل غيرهم كُثُر، ولعلّ من مضمون هذه الروايات نستشفّ أنّ هؤلاء الروائيين إنّما يسري في عروقهم الدم الجزائري، وإن عبّروا عن ما في وجدانهم بلغة ينبذها الجزائريّون ويعتبرون المتحدّث بها خائنا لرمز من رموز الهويّة (اللغة العربيّة)، لكنّ الواقع يثبت أنّ روائيِّي هذه المرحلة لم يكن بيدهم غير أن يحاربوا المستدمر بلغته، وقد وصلت كلمتهم إلى فئة أكبر من المجتمع الدولي وتجاوزت كتاباتهم حدود العالم العربي والإسلاميّ وعبّرت عن الواقع المعيش في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ الجزائر الحديث.

خاتمة:

في النهاية نجمل الحديث في النتائج الآتية:

1- يندرج الأدب الجزائري ضمن نطاق المثاقفة التي حتّى وإن تمت بطرائق عنيفة (الاحتلال) وفرضت الثقافة الجديدة على الثقافة المحلية، فإنّها شكّلت أدبا فريدا من نوعه ميّز الأدب الجزائري عن غيره من الآداب الأوروبية والعربية[40].

2- الكاتب الجزائري هو كلّ شخص يحمل الروح الوطنية الجزائرية؛ سواء وُلد بالجزائر أم وُلد بخارجها، وسواء أكان عربيا أم بربريا أم إفريقيا أم لاتينيا (أوروبيا).

3- الرواية المكتوبة باللّغة الفرنسية في الفترة الكولونيالية رواية جزائرية أثيلة، لأنّ مضمونها تمثّل الثقافة الوطنية وعمل على تقويض الخطاب الكولونيالي.

4- كلّ تأليف كُتِب أو يُكتَب بقلم جزائري يعدّ من قبيل الأدب الجزائري سواء كُتب بالعربيّة أم بالفرنسيّة أم بلغة أخرى إن كان يحمل في مضمونه الروح الجزائريّة.

5- عرفت الجزائر الكتابة الأدبيّة في الفترة الأولى للاستدمار الفرنسي لكن كتابات العصر الحديث اختلفت عن الكتابات الأولى من حيث إنّها عبّرت عن تطلعات الجماعة.

6- قائمة الكتّاب الجزائريّين الذين ألّفوا روايات ترقى إلى العالميّة في الفترة الكولونياليّة طويلة جدّا، لمعت منها أسماء؛ عُدّت رواياتهم مرجِعا تاريخيّا واجتماعيّا للواقع المرّ الذي تجرّعه الشعب الجزائري بجميع أطيافه وفئاته في تلك الفترة.

7- تنوّعت المواضيع التي طرحتها الروايات الجزائريّة المكتوبة باللغة الفرنسيّة بين السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، بلمسة جماليّة فنيّة بشهادة النقاد على اختلاف انتماءاتهم.

8- قوّة الكلمة والتعبير الذي ميّز هذه الأعمال أنشأ حولها الصراع من حيثُ كونُها روايات وأعمال جزائريّة أم فرنسيّة، إذ يسعى النقاد الفرنسيّون إلى ضمها للأدب الفرنسي حتى وإن حملت مضمونا جزائريّا صِرفا.

9- سعى المستدمر الفرنسي في الفترة الكولونيالية إلى محو الهوية الجزائرية؛ وأراد جعل كل فئات الشعب الجزائري؛ مثقفين وعوام عضاريط[41] أو دون ذلك يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

10- ضرورة إدخال هذه الأعمال إلى المقرّرات الجامعيّة خاصة في قسم اللّغة والأدب العربي وإنهاء القطيعة بين قسمي اللّغة الفرنسيّة واللّغة العربيّة بدراسة الأدب الجزائري باللّغتين.

الهوامش والإحالات

[1]– ينظر: جبّور أمّ الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دار ميم، الجزائر، ط2013/1، ص35

[2]– Jean Dejeux, littérature Maghrébine de langue française, p138.

[3]– أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 150.

[4]– ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5]– ينظر: مصطفى حفيظ، الأدب الجزائري الفرنكفوني ومسألة الانتماء، جريدة بوابة إفريقيا الإخبارية ص1. تاريخ النشر: 14 ديسمبر 2021.

[6]– ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ص87.

(7)– ينظر: المرجع نفسه، ص88.

(8)– المرجع نفسه، ص89.

(9)– المرجع نفسه، ص92.

(10)– المرجع نفسه، ص94.

(11)– المرجع نفسه، ص95.

(12)– المرجع نفسه، ص97.

(13)– المرجع نفسه، ص 98.

(14)– المرجع نفسه، ص104.

(15)– ينظر: المرجع نفسه، ص105.

(16)– المرجع نفسه، ص 106.

(17)– المرجع نفسه، ص 107.

(18)– المرجع نفسه، ص 108.

(19)– المرجع نفسه، ص 109.

(20)– المرجع نفسه، ص 111.

(21)- Lakhdar Kharchi, « La quête de l'identité dans la littérature algérienne d'expression française », *Babel*, 41 | -1, 45-54

(22)– LACHERAF, Mostefa, *Algérie, action et société*. Paris: Maspero, 1965.

(23)– نسيمة بوزيد، أزمة الهويّة في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، ع02/مارس 2016، ص 136.

(24)– رواية ترتكز على دعوى أخلاقية واجتماعية للدفاع عن وجهة نظر سارد كامل المعرفة، وهي ترتبط بمرحلة تكوّن الوعي القومي والوطني.

(25)– عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925– 1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص 20.

(26)– المرجع نفسه، ص 26.

(27)– ينظر: أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، من ص 180 إلى ص 182.

(28)– عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1/ 1983 ص.ص.249–273.

(29)- Lakhdar Kharchi, « La quête de l'identité dans la littérature algérienne d'expression française », *Babel*, 41 | -1, 45-54

(30)– Ibid, p55

(31)– Ibid, p58

(32)– محمد ديب، الدار الكبيرة، تر: سامي الدروبي، دار الهلال، القاهرة، 1970م، ص ص 23–24.

(33)– نسيمة بوزيد، أزمة الهويّة في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، ص ص 139–140.

(34)– عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925–1965، ترجمة محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 137.

(35)– نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، مجلة المخبر، بسكرة، العدد السابع، 2011، ص ص 223–224.

(36)– المرجع نفسه، ص 225.

(37)– المرجع نفسه، ص 223.

(38)– ينظر: جبارة إسماعيل، تجلّيات الاغتراب في شخصيّة بطل رواية الدروب الشاقّة لمولود فرعون، مجلة حوليات جامعة قالمة للغات والآداب، العدد 12، ديسمبر 2015، ص ص 29–31.

(39)– نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، ص 223.

(40)– حبيب فاطمة الزهراء، ترجمة العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية رواية بماذا تحلم الذئاب لياسمينة خضرا دراسة تطبيقية، شهادة ماجستير، 2015–2016، معهد الترجمة جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، ص 50.

(41)– العضاريط: جمع عضروط، وهم الأجراء الذين يخدمون سواهم. ينظر: عبد الجليل مرتاض، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، دار هومة، الجزائر، ط2/ 2009، ص 23.